مجلة التعليمية
ISSN: 2170-1717
EISSN 2602-6015

المجلد 14 / العـــدد: 01 (2024)، ص 161–181

شعرية الاغتراب لدى ابن الشاطئ

The Poetic of Alienation for Ibn al-Shati'

توفيق قحام*

جامعة محمد الصديق بن يحي - جيجل

(الجزائر)

toufikgueham5@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/08/10 تاريخ القبول: 2024/02/21

ملخص:

تقوم هذه الدراسة على البحث في ظاهرة الاغتراب في الشعر الفلسطيني الحديث والمعاصر، من خلال الوقوف على أهم تمظهراتها في الكتابة الشعرية، مع البحث في المشاعر القوية المعبر عنها باستعمال اللغة الشعرية، وتدور إشكالية هذا البحث حول: تجليات الاغتراب في الكتابة الشعرية لابن الشاطئ؟

هذا الشاعر الذي تغرب عن وطنه واستقر به المقام في الجزائر المقاومة، فكان وطنا جديدا ومصدر إلهام له، وكان الاغتراب عنده مزيجا من الحزن والألم، كما مثل لديه قوة وتحد كبيرين للاحتلال الصهيوني، فاستطاع التعبير عن هواجسه وآلامه كما استطاع التعبير عن أحزان شعبه وأمته، مستعملا في ذلك لغة موحية وشديدة الدلالة.

الكلمات المفتاحية: الاغتراب، الشعرية، ابن الشاطئ، الحنين

Abstract:

This study is based purely on the phenomenon of alienation In modern and contemporary Palestinian poetry, By identifying the most important aspects of poetic writing, With purely the strong feelings expressed using poetic language. And the problematic of this research is about: manifestations of alienation in Ibn al-Shati's poetic writing?.

This poet who left his country, And he settled in the place of resistance in Algeria, It was a new homeland and a source of inspiration for it, Alienation for him was a mixture of sadness and pain, And as he represented, he has great strength and a challenge to the Zionist occupation, He was able to express his concerns and pain, as he was able to express the sorrows of his people and his nation, Using highly suggestive language.

Keywords: Alienation, poetic, Ibn al-Shati', nostalgia.

* - توفيق قحام.

1- مقدمة:

يتفاعل المبدع بشراسة مع واقعه وأحداثه ليتولد بداخله شعور قوي يحرك زوايا الإبداع في مخيلته لينتج نسيجا فنيا مليئا بالدلالات والمواجهات والتحديات، ولعل الشاعر الفلسطيني إسماعيل إبراهيم شِتّات المشهور بابن الشّاطئ من الذين تفاعلوا مع واقعهم المرير والمرتبط بالتهجير والطمس لكل معالم الهوية الفلسطينية من قبل الصهيوني المحتل الغاصب، حيت عاش حياة الاغتراب والبعد عن الوطن، والإشكالية المطروحة في هذا الموضوع هي: ما هي تجليات الاغتراب في الكتابة الشعرية لابن الشاطئ؟

وتهدف هذه الدراسات بالأساس إلى الكشف عن تمظهرات الاغتراب في كتاباته الإبداعية وخصوصية اللغة الشعرية التي اختارها لتدليل مشاعره وآلامه، وتتبعنا منهجية قائمة على البحت في جوانب الدلالة والبناء الأسلوبي، من خلال القضايا المطروحة وعلاقتها بالاغتراب بالإضافة إلى طبيعة اللغة الشعرية المتعلقة باللغة وحضور المرأة.

2-تعريف الاغتراب

2-1-لغة

الاغتراب والغربة بمعنى الترحال والانتقال من مكان إلى آخر، وهي في اللغة من مادة غرب حيث جاءت عند ابن منظور في لسان العرب مشتقة من : "الغرب" هو الذهاب والتنحي وقد غرب عنا، يغرب ، غرباء، غرب و اغرب وغربه وأغربه نحاه وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتغريب الزاني سنة إذا لم يحصن وهو نفيه من بلاد والتغريب البعد.

قال المتلمس:

إلا ابلغنا أفناء سعد بن مالك ***رسالة من قد صار في الغُرب جانبه

وفي حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الغرباء فقال " الذين يحيون ما أمات الناس من سنتي".وفي حديث أخر "الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ".

واغتراب الرجل ، حكن في الغرائب وتزوج إلى غير أقاربه ورجل غرب بضم غال ين و الراء وغريب بعيد عن وطنه الجمع غرباء أنثى غريبة والغرباء الأباعد[1]

2-2-اصطلاحا:

ارتبطت الدلالة الاصطلاحية للاغتراب بنوعية العلوم الإنسانية المتصلة، حيت تعني في علم النفس ذلك الاتصال والانفصال الحاصل على مستوى الذات الشعورية، انطلاقا من علاقة الأنا بالآخر، أو من علاقات الأنا بالأنا المتمثل في انفصام الشخصية، ويعتبر" محمد راضي جعفر الاغتراب النفسي "الحالة التي يشعر فيها

الفرد بانفصاله من ظرف مثالي، فيتطلع إلى الانعتاق من العالم المحيط به إلى عالم من صنع نفسه .الذي يؤدي بالإنسان إلى اعتزال واقعه اعتزالا كليا أو شبه كلي، و سعيه إلى بلوغ واقع أخر لا وجود له إلا في تصوره، و هذا الاغتراب أشبه ما يكون بالهمة لدى العازف "[2].

أما في الفكر الصوفي فالاغتراب "نزوع وعودة إلى الله، وهذا التوجه في فهم الاغتراب بأن الهجرة معنوية إلى الله، والنظر نحو السمو والترقي العابد و تطلع أصحاب الأرواح الخفيفة والنفوس الشفافة[3]. وكما يأوي شعراء الغربة للمكان فشعراء الاغتراب مسافرون دائما عبر الزمان يسترجعون فيه الطفولة و الأحلام.

وبالانتقال إلى الأدب والفلسفة والاجتماع فإننا نستحضر مقولة قالها محمود درويش ذات يوم:"ليس وطني دائما على حق، ولكنني لا أستطيع أن أمارس حقا حقيقيا إلا في وطني"، من هنا كانت حقيقة الشتات وكان معها حدث الاغتراب، هذا الأخير الذي لا يمثل هروبا من الحياة أو من الفاعلية الإنتاجية في المجتمع، كما أنه لا يمثل استسلاما للضغوط النفسية والاجتماعية الحاصلة على عاتق الفرد، ولا يمثل إسهاما سلبيا داخل البنية الانتمائية للجماعة. إنه لاشك بحث عن الذات وتعرف على الجانب الكامن داخل الشخصية، كما أنه بحث عن الحقيقة والحياة والقيم والهوية داخل البيئة البديلة، هذه الأخيرة التي من شأنها خلق القدرة الفاعلة وتحريك الطاقة الكامنة داخل الحقل الشعوري، ولعل مرد كل هذا بالأساس هو تولد الصراع الداخلي القائم بين محوري الضياع والوجود، اللذين حددهما صلاح فضل في كونهما العنصران الأساسيان في خلق الذات والوجود "فالشعور بالغربة والضياع هو في الحقيقة . تفريع عن المحور الأساسي العام ، محور الذات والوجود، أو هما يتوازيان على مستويين مختلفين"[4]

وبالبحث في المرجعية اللغوية للفظ الاغتراب، يمكن اعتبار الجذور الأولى له ذات منشأ يوناني، حيث اعتبر أقدم مما قدمه هيجل وماركس ، فقد تحدث عنه كلا من أفلاطون وأرسطو، عندما أسس الأول نظريته على مفهوم (الفيض) أو ما يسمى (عالم المثل)، بينما بناها الثاني على مفهوم الغاية والتمام، ثم جاء انتقالها إلى اللاهوت المسيحي ومعالجتها في كتابات العديد من الفلاسفة الاجتماعين في أوروبا وخاصة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

وفي البيئة العربية شكل الاغتراب نوعا من الأزمة الذاتية والاجتماعية على مستوى الفرد والجماعة، خاصة على مستوى الذات المبدعة، وتجلى ذلك بصفة خاصة مع الشعراء الصعاليك في البيئة الجاهلية، ثم مع شعراء المهجر في البيئة الحديثة أمثال إيليا أبي ماضي و إلياس أبو شبكة وجبران خليل جبران وغيرهم..

وقد امتد الأمر فيما هو عليه إلى كل الأقطار العربية ليشتد ويتعمق مع تأزم الوضع بعد النكسة العربية في فلسطين، وقيام الحروب العربية الإسرائيلية، حيث بدأ التهجير والقمع والقتل الممنهج من طرف الكيان الصهيوني الغاصب وحلفائه من الأمريكان والإنجليز، فظهر شعراء كثر حاولوا التعبير عن قيمة الأرض والهوية

والمجتمع خاصة مع حالة المنفى التي كانوا يحيونها، ومنهم الشاعر ابن الشاطئ، الذي استقر به المقام في الجزائري فكتب عن الشوق والحنين بطريقة تتلاءم مع روح النضال الفلسطيني وتضحيات الشعوب الصامدة، فصدح مخاطبا أرض الشهداء من أرض الشهداء، ليربط الانتماء العربي ويقوي من عزيمة الثوار الفلسطينيين بأمجاد الثوار الجزائريين ضد الاستعمار الفرنسي.

3-ابن الشاطئ رجل قضية:

3-1الاغتراب في حياة ابن الشاطئ (1939- 2008):

الحقيقة أن الشاعر الفلسطيني إسماعيل إبراهيم شتات الملقب "ابن الشاطئ" لم يدخر جهدا في سبيل القضية الفلسطينية ، وهو الذي التحق بصفوف الثورة ضد الصهاينة منذ اندلاعها في كانون ثاني-جانفي1965، بعدما تعرض للاعتقال عدة مرات كان آخرها سنة 1957، فتقلد عدة مهام سياسية وإعلامية وعسكرية وأمنية في سبيل مقاومة الطغيان والظلم والعبودية، وعدم رضوخه لجبروت الكيان المغتصب، الذي ظن أنه قادر على إسكات الأصوات الثائرة والحرة، قبل أن يحط رحاله بلبنان بعد فراره من السجن أين حكم عليه بـ 17 سنة، تم انتقل إلى سوريا وأسس بها رابطة أدباء الساحل1966، وفي مطلع السبعينيات 1970 حط الرجل رحاله بالجزائر ، ليعمل مدرسا لشهور في مدينة وهران، لينتقل بعدها إلى العمل الإعلامي بدعم من صديقه الحميم الأستاذ "الطاهر بن عيشة"، فاستلم القسم الثقافي في مجلة "المجاهد" الأسبوعي لسان حال جبهة التحرير الوطني، ليؤسس أول صفحة أدبية في الجزائر حملت اسم "مرايا أدبية" وكانت أقرب لمدرسة للشعر والأدب العربي مفتوحة لجميع الطاقات الإبداعية الجزائرية وغير الجزائرية.

وعند تأسيس الإذاعة الجزائرية الموجهة للمشرق العربي، استدعي ابن الشاطئ ليكون أحد أبرز معدي ومقدمي البرامج الثقافية فيها، تزامنا مع إعداده لبرنامج "كلمات إلى فلسطين" في إذاعة فلسطين التي كانت تبث من الجزائر، لكن تفرغه للإعلام لم يدم كثير، فسرعان ما عاد للتعليم، مع احتفاظه بمرايا أدبية في المجاهد، ومن بعدها أوتار وموازين في جريدة الشعب. فدرس في ثانويات تيزي وزو ومعسكر وجيجل، وفي المعاهد التكنولوجية في المدية وجيجل، وكذا في جامعة جيجل كأستاذ متعاقد.

ربطت ابن الشاطئ علاقة حميمية مع شاعر الثورة الجزائرية المرحوم "مفدي زكريا" والذي كان يصر على مناداة "ابن الشاطئ" رحمهما الله بلقب "شاعر الثورة الفلسطينية"، واستمرت المراسلات بينهما حتى وفاة "مفدي زكريا"، ويقال أن أهل بيت ابن الشاطئ مازالوا يحتفظون بعشرات الرسائل التي جرت بين الرجلين.

كما ارتبط بعلاقة متميزة من الشاعر الجزائري الكبير "محمد الأخضر السائحي"، والذي فتح له باب التعامل مع الملحنين والمطربين الجزائريين فغنوا له العديد من القصائد.

برز شعره في صحيفة " المجاهد الجزائرية " وحصد الشهرة الواسعة من خلال تقديمه لصفحتين أدبيتين بعنوان " مرايا أدبية " فكان محط أنظار المستبدين ، والمستعمرين الجائرين ...لأنه قادر على إيقاظ النخوة، وبعث نبض الشعب وبث الوعي التحرري[5] .

3-2-ابن الشاطئ واستلهام الثورة الجزائرية:

ارتبط الشعر الفلسطيني بالنضال والمقاومة ولذلك فلا غرو من أن نجد شاعرا مثل ابن الشاطئ يتغنى بالثورة الجزائرية ويمجدها في معظم أشعاره، وهي نزعة غدتها في ذلك شعرية الحنين والشوق للوطن والحرية، حيت يعلل نفسه وحنينه في العودة والتحرر بمسار الثورة الجزائرية تماما مثلما استمد الشاعر الفلسطيني الآخر "سميح القاسم" من التاريخ العربي روح التحدي والفروسية والشجاعة في قوله:

دم أسلافي القدامى لم يزل يقطر مني
وصهيل الخيل مازال وتقريع السيوف
وأنا أحمل شمسا في يمني وأطواف
في مغاليق الدجى جرحا يغني [6]

لقد اعتبر ابن الشاطئ الجزائر والثورة الجزائرية مصدرة قوة وعزيمة وفخر، فراح يمدحها ويعلي من مكانتها بين الأمم وفي مختلف المحافل، وربطها بالقضية الفلسطينية، كما عبر عن رموزها الملحمية والمكانية وتغنى ببطولاتها ومناسباتها، إنها ذلك الزخم الثقافي والمعرفي الذي واكب كل القضايا العادلة والتحررية، فيقول في قصيدة "نافذة مفتوحة على الأوراس..!؟!:

يتجدد الأوراس في نفسي *** والمجدلية.. والهوى العطر.
وعلى جبين الشوق من ولهي *** ريح الصبا .. وموسم آخر
فأنا على الأوراس نافذة *** مفتوحة.. وضحى.. ومدّكر..!![7]

خص الشاعر الأوراس بقصيدة كاملة، حملها كل النوايا والأحلام والآلام والشعارات والعواطف، تماما مثلما حملها الشعر والقوافي والإبداع، فرمز لها بالقوة الخفية والدافع الكبير الذي يبعث فيه روح الصبر والتحدي والمقاومة، وهو الذاكرة التي يستحضرها كل حين، وكل هذا للتنفيس والاسترجاع والهروب من ألم الاغتراب وعنف الواقع.

4-مظاهر الاغتراب في المضامين الشعرية لابن الشاطئ:

4-1-الحزن:

مثل الحزن المظهر الأكثر شيوعا للاغتراب في الكتابة الشعرية لابن الشاطئ، حيت جاء محملا بكثير من الأسى والألم والشوق، فتعابيره ومضامين قصائده كلها محملة بالسوداوية والقلق نتيجة النكبة الفلسطينية، فالوطن عنده قيمة كبرى تستحق الحياة من أجلها، خاصة عندما ترتبط بالمقدس والطفولة والهوية، ولذلك كان استحضاره للموت ملازما للأرض، فهو مرتبط الوجود والحقيقة، وهذا ماطرحه "إزرا باوند" Ezra Pound في تعبيره عن دلالة التصوير الفني حينما قال : أنه من الأفضل أن تقدم صورة شعرية واحدة طوال الحياة من أن تنتج كتبا عديدة"[8]، وهذا لبلاغة التعبير والإحالة ومن ذلك قول الشاعر:

تَزاحَمَتِ الرَّداءَةُ.. واكْفَهَرَّتْ *** وجوهُ النَّاسِ.. وانْكَسَرَتْ قلوبُ

وأثقَلَ خاطِري ما ضاعَ مِنَّا *** جُزافًا.. فاسْتَباحَتْنا العُيوبُ..!؟

لماذا تَضْحَكينَ؟ رغيفُ خُبْزٍ *** يُساوي العُمْرَ . عَفْوَكِ . ما العجيبُ..؟

على زَبَدِ السَّفينِ يموتُ (سَعْدٌ) *** وتُؤْسَرُ (خَوْلَةٌ).. ويَعيشُ ذيبُ.

حنانَكِ ما الذي تَبْغينَ مِنِّي *** تَجَنَّى الأهْلُ.. واغْتَرَبَ الأديبُ.

أَضَأْتُ مساحَةً كُبْرَى.. ولكِنْ *** غَريبُ الدَّارِ.. سَيِّدَتي.. غريبُ..![9]

فهذا الكلام من ابن الشاطئ فيه صوت من الأسى والألم والحزن، كما أنه تعبير عن الاغتراب وسيطرة المشاعر السلبية والانهزامية على عمق الذات الكاتبة، لقد تحولت حياة الفلسطيني إلى معادلة بين الموت والأسر وأطماع الصهاينة، إن هذا التعبير نقلنا إلى عوالم كبرى من التشاؤم والانكسار، وإلى تعطيل الحياة والخيانة، لقد استطاع الشاعر أن يلخص لنا الحقيقة الأليمة بكل تجلياتها في أبيات قليلة، حيت الحس الشعوري القوي والتأثير المباشر على نفسية المتلقي فضياع الأرض عنده هو ضياع الحياة وضياع .

ولم يكف الأمل الذي علل نفسه به الشاعر للوصول إلى نشوة الحياة واسترجاع الحقيقة، فكلما حاول استعادة الذات كانت الحقيقة المظلمة شاخصة أمامه تعطل الوجود وتقتل الطموح وتعكر الماضي، ولقد متل على ذلك بالأصداف التي كلما حاول التقرب منها جعله الحزن يرميها أبعد

رؤيتي لاحت بالأفق

فتعانق طيفها بحروفي

كنت أترقب حلما منتظرا
فجراً بعيداً يتوارى خلف الأفق
هممت لجمع أصداف شاطئي
فرميتها مَد البصر وبكل قوتي
يعاودني حنين طيفها!!..
فأجمعه مرة أخرى[10]

إن مستوى الحزن عند الشاعر جعله ينتقل من الواقع إلى الحلم ومن الحقيقة إلى الخيال، فتحطم الأشرعة لم يمنعه من الرسو على كيان جديد، وعلى جزيرة مفعمة الحياة والطموح، هي أرض الجزائر التي آوته وكانت له فلسطين الحبيبة الضائعة، وهي الوطن الذي أخرجه من سلطة الأمواج والحروب والتهجير العشوائي للكيان الصهيوني الغاصب، الذي لا يملك الرحمة والإنسانية بداخله:

يعاودني حنين طيفها!!..
فأجمعه مرة أخرى
تمزقت أشرعتي عبثا بالأمواج
فتقذفنا دونما رحمةٍ للبعيد
فأجد ذاتي ونفسي مستلقي
على سهد الجزر الحالمة[11]

كل هذا الواقع وهذا الألم وهذا الجرح أحرق قلبا كبيرا بداخل كل فلسطيني وعربي ومسلم حر، فلاغتراب تحول إلى بركان من اللهب والحمم المتقاذفة من مكان إلى آخر، لقد تحول إلى نفور من الحياة، والشعور بالعيش على الهامش:

إني أسافر محمولا على وجعي *** والحزن يغرف من بحري.. وينهمر
ورائي الريح تبكي ناي عاشقة *** مجنونة.. يغرف من بحري .. وينهمر[12]

فالصمود لم يعد ممكنا في قاموس ابن الشاطئ ؛ لأن لهيب البركان أكبر منه؛ ولأن الحزن بداخله أكبر من الحياة، فالمآسي المتكررة وسطوة الكيان الغاصب وضعف الأمة، كلها مشاهد مؤلمة ولدت حزنا كبيرا وجرحا غائرا في جسده، استطاع الشاعر أن يمثله في إبداعه بكثير من المرارة والعمق الشعوري والتصوير الفني.

4-2- الاغتراب واستعادة ألحان الماضي:

الماضي عند ابن الشاطئ هو الزاد والمرجع والحقيقة الوحيدة التي مثلت الوجود المقدس بداخله، والذكريات تعليل للنفس بالعودة، وهو بذلك يتجاوز الصورة السطحية إلى ما هو أعمق وأبلغ، حيت التحدي والصمود والمواجهة التي يحول فيها المكان إلى سلطة زمنية مقدسة تتلو تعويداتها بين الفينة والأخرى.

والحقيقة أن هذه الأحزان ليست مرتبطة بالشاعر فقط بل إنها تمثل هموم الشعوب العربية والإسلامية كافة، والشاعر يختزل الأنفس بأكملها في روحه وفي إحساسه وفي غربته لذلك يرى البعض من النقاد أن الكتابة الشعرية أحدثت "نقلة نوعية في النظر، وفي التعامل مع الشعر، والواقع التاريخي...بحيت لم يعد الشعر ممارسة نظرية، أو استجابة لنوازع ترغب في أن تتحقق في التعبير الشعري"[13]، بل أصبحت تشتغل على تحريك القارئ والتأثير فيه، ديوانه :أبجدية المنفى والبندقية، وهو ديوان مفعم بروح الماضي والهوية والانتماء، كما هو الحال في قصيدة احتجاج البنفسج حيت يقول:

وكيف ألم أشلائي.. ونفسي *** مدمرة .. وذاكرتي تذوب..؟؟
أحاول أن أفسر ما اعتراني *** ولكن كيف..؟ والمنفى رهيب؟؟ [14]

وهذا مانلمحه في أيضا في قوله:

يمتَدُّ في عمقِهِ نبعُ الحنينِ مَدًى *** ويستفيقُ على جفْنَيهِ (سَحْبانُ)
وكَمْ يفيضُ.. وكْمْ تَحْلو ضَفائِرُهُ *** وكمْ يروقُ إذا ما حطَّ نيسانُ!..
يَنْداحُ في خاطِري دَوْمًا..وتَسْكُنُهُ *** ريحُ الصَّبَا... وعصافيرٌ.. وغُدْرانُ
يحتَلُّـني كُلَّما جاهَدْتُ ذاكِرَتي *** سِرًّا.. ولا يعْتَريهِ قَطُّ نِسْيانُ!..
أَتَسْألينَ دَمي..؟ ما زِلْتِ سَيِّدَتي*** قِدِّسَتي.. ودَمي المحروقُ طوفانُ[15]

ومرة أخرى تقترن الغربة عند ابن الشاطئ بتحقيق آمال الأمة المتدفقة والمحفوفة بالجراح والأوجاع، حيث القومية العربية والإسلامية السبيل الأوحد لتحرير المكان المقدس واسترجاع الهوية المسلوبة، فابن الشاطئ صب رحيق شعره الموغل تمردا وعشقا وثورة ، رؤاه النضالية كانت كبركان يتفجر حماسة وغيظا ، وقد كانت الحمم أكثر اندفاعا فشكلت إحياء بعث قوي متصل بالعروبة:

لا تطلقي ساقيك للريح إذا شاخ المكان
أنا والعروبة توأمان ولن يحرقنا الزمان
فعلى ضفاف الوحدة الكبرى تلوح عسقلان

وهي علامة دالة على وحدة الروح والمصير وكل ما تعلق بوحدة الصورة النفسية التي يعيشها الفرد العربي والفلسطيني، ولعل أهم ما حاربه الشاعر في قصائده هو النسيان، فلقد تحول بداخله من عامل سلبي إلى عامل إيجابي، فالريح التي تهب والمقترنة بتغير الزمان وقدم المكان يجب أن تكون عاملا للمقاومة والصمود، فجاء التحدي لتحقيق الاستمرارية والوجود

وكيف لا يكون شعره نبضا صادقا للمعاناة الفلسطينية ، ومكابدة مريرة لحياة يومية قاسية ، فرضتها قوة المستعمر الحديدية الغاشمة، وهــو المناضل الباسل المستميت في سبيل تحقيق أهدافه وطموحاته، فلقد كرس حبه لوطنه، وجعل هذا الأخير غاية سامية فوق الجميع، وراح في غربته يسوق النماذج العليا للتحدي والوطنية، حيث الثورة الجزائرية رمزا للتحرر والهوية والشهادة، وموطن الذات الجماعية التي لملمت غربة ابن الشاطئ، فحينما يقول:

فإذا الجليل على مَفارِقِ غزَّةٍ
وإذا (الحسين) يثور في البيداءِ
وإذا فلسطين الحبيبة مهرة
طائية في كبــرياء سناني
...
أوَ لم تكن أرض الجزائر ثورة
عربية في بعــدها الوضاء[16]

إنه يسوق العبر والقيم ويعلل غربته بحبه وبتاريخه وبعروبته (الحب و التاريخ والأرض والعروبة)، فيستنهض من تاريخ العروبة فروسية، ويستنهض من تضحيات الجزائر قوة، فالتاريخ تحول إلى مصدر إلهام وقوة، استعاد من خلاله الشاعر كيانه وتحركت آماله وطموحاته، فهذا الكلام من ابن الشاطئ فيه صوت من الحنين والغربة باستعمال صيغة التغريد والتطريب حيث نقرأ من خلاله تغير العالم والإنسان واللغة في فضاء رحب واسع،يتجاوز العوائق والراهن المزري والمعطى الاستحالي إلى الممكن.

ويتولد الحس الوطني من موطن الهجرة عند الشاعر فتتدفق المشاعر ويتفجر اللهيب ويولد الصمود والتحدي ليتحول هذا المهجر إلى طريق مفتوح ومتصل يربط المغرب بالمشرق عبر الزمان والمكان، ففي الديوان السابع " اعترافات في عز الظهيرة " منشورات وزارة الثقافة العراقية / بغداد 1983 م، يقول في إحدى قصائده:

هذي اعترافاتنا مقروءة الهُدُب***تصحو على دمنا المحروق في غَضَب
هذي اعترافاتنا لا حَدَّ يفصلها***عن السنابل أو أرجوحة اللَّهَب
تجتَثُّ كلّ هلامــــيٍّ تُبَــــرْوِزُهُ***محاجر الريح في المنفى وفي(النَّقَب)
ويسكن الحبّ في أعماقها قدراً***يمتدُّ من(أطلسي)الظامي..إلى حَلَب[17]

وهي كلمات تحمل سمات الوحدة والعودة، فالاغتراب عنده معقود بعهد العودة، لذلك نجد التفاؤل يغلب على قصائده بعدما يسهب في طرح مآسيه وويلاته، لقد سيطر الماضي على حياة الشاعر ابن الشاطئ، وعلى ملكته الشعرية فجاءت قصائده فسيفساء أثرية، تحمل شعورا تاريخيا متعالقا بالزمنية، فكور مراحل

الصبا لتحمل ألمه وطموحه وكيانه وهويته، مستحضرا من خلاله الذكريات التي تعانق المكان، حيت الطفولة والحرية والوطن الغالي، إنه يستلهم شعره من عبق الماضي ومن وجوه الصبا، فالغربة أشعلت بداخله حسا شعوريا قاتلا، فهو يظهر عمق الجرح وعمق الألم بكثير من التشخيص والمقاربة والتأثير، ليعبر عن ارتباطه الوثيق بالماضي الذي يحرك وجوده وذاته، لقد تحول الماضي عند الشاعر إلى كيان قاتل يوقد بداخله الشعور بالغربة، ويحرك وجوده نحو الانتقام والتحدي والمواجهة من جهة أخرى، فالتاريخ ليس في ذاته ولذاته، وإنما لبيان حال وتقرير حقيقة وإظهار وجود وتثبيت شعور، إنه ذلك الزخم العاطفي والفكري الذي يجعلك موجودا ومنتميا.

4-3-الاغتراب وسلطة المكان:

للمكان سلطته في الكتابة والإبداع ولقد كتب "غاستون باشلار" عنه بكثير من الجمالية والإيحاء والدلالة، فاعتبر سلطة مطلقة، وعنصرا مهيمنا على ساحة الشعور والوجود، تتجسد من خلاله كل التفاصيل فيلتقي بذلك عمل الشاعر مع عمل الرسام "الذي يكون من اللمسات الفنية للقصيدة وحدتها الشاملة بفضل قدرتها على الإشعاع في كل الاتجاهات، وفي مجموع أسطر القصيدة"[18]، ولعل من أكتر الأماكن شيوعا وتوظيفا عند ابن الشاطئ هي الشواطئ والمساجد والأقصى والشوارع والمقاهي والكنائس، وأشجار الزيتون، وكل مايرتبط بالأصل والوجود، وكذلك المدينة حيت يقول في مدينة قانا:

ويزوغ مفتعلا أساه.. مشيعا *** (قانا).. ويبكي بكرة وأصيلا..؟؟
تلك الدموع المولعات بغدره *** لن تستطيع بأن تزور جيلا..!!
لبنان خلده الضال ولم يزل *** مطر الصباح على الربى وصهيلا[19]

فالمكان عنده رمز للتحدي والنضال، فـ "قانا" التي يظن المحتل أنه شيعها باستيطانه المادي ستبقى حية في قلوب الأجيال وستنتصر بخلودها الذي استمدته من لبنان ومن الجزائر ومن الحرية، فلغة المكان عصية على كل غاصب وهي الجانب الخفي الذي يصنع الوجود ويحافظ على البقاء.

وليست قانا وحدها من ألهمت الشاعر القوة والصمود في غربته، بل أن كل المدن ستظل عصية على اليهود، بعطرها التاريخي والحضاري والديني ومن أبرزها (جنين):

تنداح في مقل الزمـــا *** ن.. وفي مخيلة الحصون
وتجسد النهرين كالمـا *** ضي مرايا في (جنين)..!![20]

هذا المكان الذي يجمع الماضي بالحاضر ويشكل الحياة والأمل والوجود، إنها المدينة التاريخية المقاومة، التي ألهمت الشاعر الفلسطيني عذوبة الشعر وقوة الكلمة، فلم يترك زاوية من زواياه إلا وراح يشكل صورا فنية موحية بالصمود والمواجهة.

4-4-في نظرته للآخر الصهيوني

جاءت نظرة الشاعر الفلسطيني عامة وابن الشاطئ على الخصوص، محملة بالكثير من الكره والبغض للآخر اليهودي، ليصفه بأبشع الصفات وأحقرها وأشدها مكرا، فصوره على أساس الذئب والمستوطن والقاتل والمجرم والسفاح ..، وهو بهذا يستحضر مختلف الوقائع والمجازر التي ارتكبها في حق الشعب الفلسطيني، وأهمها التهجير ومصادرة الأراضي والأحلام، ففي قوله:

هو مستوطن جديدا قابعاً أنا فيه
أنهك معالمي ذاك الظمأ الجارف
كيف دعتك قدرتك على حرماني
ملكت زمامي وبعثرت أروقتي[21]

نجده يحمل هذا الكيان مسؤولية الضياع والتشرد الذي يعيشه، ليحيلنا إلى نكسة الذات أمام هذه الهمجية، وهذا الاغتصاب الممنهج الذي أفقد الفلسطيني تاريخه وأرضه ووجوده، أنه يصور حالة من الحيرة التي يعيشها وهو يشاهد أمامه هذا الواقع الأليم والغير مبرر، ولذلك يواصل خطابه قائلا:

بل أين مني نفسي الحائرة ...
تبدل طيفُها بطيف وحوش كاسرة
تتراقص أمام ناظري مقهقهة عابثة
تبدت لي كوابيس أنصاف البشر[22]

فيضع وصفا آخر أشد قوة وأقوى دلالة وهو (الوحوش الكاسرة)، حيت الصهيوني فاقد للرحمة والشفقة، ومتباه بأفعاله الشنيعة في حق الفلسطينيين، فيراه مقهقها وسعيدا بكل مجازره ولذلك استحق صفة الوحشية.إلا كل هذه الصفات الوسلوكات الوحشية لم تثن الفرد الفلسطيني وفي مقدمتهم شاعرنا على مواصلة التحدي والصمود بالرغم من المكر الذي استحق به العدو صفة الذئب الخبيث والغدار، فراح ابن الشاطئ يصرخ قائلا:

أنا ما انحنيت.. ولا انبطحـ *** ـت..ولا أخافتني الصعاب
قاومت كـل مسـوق *** علنا.. وقاومـت الذئـاب[23]

وكل هذا تعبير عن الصمود والتحدي أمام همجية المحتل الصهيوني، فكل الصعاب تهون أمام قيمة الوطن والإنسان والقدس، وكل الرزايا فخر للرجال والأوطان، ولا يتنينا الدمار والتنكيل والحصار، فكم خربوا وكم دمروا ولكن الصمود أقوى

وخربوا كل شيء قبل .. واعتصموا *** بالقمع.. واغتصبوا الإنسان وافتخروا..؟[24]

إن حضور الصهيوني كتابة ابن الشاطئ هو استحضار للشر والمكر والنهب والاحتلال والقتل وكل أشكال الخسة والنذالة والاضطهاد، فهو لا يدخر مفردة توفيه حقه من الفساد إلا ويوظفها بطريقة فنية معبرة ومفعمة بروح القوة والدلالة، لتستمر روح قصائده علة نفس النسق والمنوال محدثة أثرا بالغا في متلقيها

5-لغة الاغتراب في أسلوب ابن الشاطئ

5-1-لغة الطبيعة:

الطبيعة في الكتابة الإبداعية عند جماعة التيار الرومانسي هي نوع من المترع والمفر الجميل الذي يعالج النفس ويروح عنها، وهي استراحة مؤقتة للانطلاق من جديد، تقوم على اللغة المختارة والمعبرة حيت "استغلال اللغة الدرامية، وكذا البناء الدرامي من أجل قصيدة تصور حركة الواقع، وتتفاعل معه وبه"[25]، ولذلك وجد فيها ابن الشاطئ ضالته فراح يتبارز مع رموزها ويسجل مشاعره على جدران كلماتها وأسمائها، فغلبت المفردات الناعمة والقوية على قصائده، لتكشف لنا الجانب المغيب في شخصية الرجل، وتحيلنا على شعور قوي وإحساس فياض بالغربة والحنين إلى الوطن والماضي، كما مكنتنا هذه اللغة من معرفة نوعية الصراع الداخلي للشاعر بين ذواته المختلفة، ففي قوله:

هددتني وغابت شمس النهار
ساورتني شكوك وظنون المساء
صافحتني هواجس ليلتي بسد يمها
قلبها عابث بوجداني غارق بنوم عميق
التحفت من بوادرها أوهامٍ وأحلام[26].

نلمح قوة الصورة وعمق الإحساس وتعالق العواطف، مثلما تتعالق الأزمنة والأوصاف، فجاء المعجم الطبيعي مرتبطا بأزمنة متغيرة وفاعلة في التأسيس لحالة جديدة من الغربة والبحت عن الأنا الجمعي، ومن ذلك (غابت الشمس، النهار، ظنون المساء، هواجس ليلتي، الوجدان، الغريق الأوهام، الأحلام..). وهي كلها مرتبطة بالانتقال من الحياة إلى الموت ومن الجيد إلى السيئ، ومن النور إلى الظلام، و هكذا "جعل الشّاعر لكل كلمة مدلولها النابع من لحظة إبداع، إذ تتكدس الآلام وأحاسيس الإغتراب الموجهة ليعبر عن الصراع الذي ينتقل من النفس إلى اللّغة، أين تصبح هذه الأخرى تشاطره معاناته"[27]. وحتى الشمس التي ترمز إلى الضوء الحرية تحولت إلى نار حارقة في قصيدة ابن الشاطئ وفي شعوره الداخلي فيقول فيها:

على جدار الصمت وشموس حارقة

أنفاس متلاحقة تختنق بعضها بعضا

وخلفي أمواج ثائرة بدوامات رافضة

تعلن هدنة الانتظار والأمان المستحيل[28]

إن هذه الرموز كلها تحمل روحا رومانسية متشائمة وناقمة على واقع مفزع، كما تمثل جرحا عميقا يزداد نعفنه وألمه كل حين، إنها شخصية مبعثرة العواطف وفاقدة للرغبة، تعيش على هامش العالم الذي نبدها وأتهمها بأبشع الصفات.

5-2- لغة الاغتراب وسلطة التحدي والأمل:

ظلت زهرة الحرية تطارد فكر ابن الشاطئ النير لتشكل حقولا من معاني الكرامة والعزة والانتصار، وتفتح له بابا عريضا لإنسانيته المتماهية في الصفاء والنقاء إذ يقول:

زهرةَ المِنْفَى..! أَمِنْ أَمَلٍ..؟ **** وا فَرْحَتاهُ حينَ نتَّفِـقُ..!

فجاء شعرا مفعما بالصمود والمواجهة ليواصل درب مقاوماته العسكرية عن طريق الشعر والقلم، فقد اختار طريقة جديدة للتعبير عن كيانه والإيمان بوجوده، فراح يتوعد الكيان بمستقبل للفلسطيني، ويصنع من منفاه أملا قويا لبلوغ الحقيقة الإيمانية المتصلة بالنصر والحرية، ولن يعياه طول الصبر والانتظار في ذلك؛ لأن المكافأة ستكون عظيمة:

سأظَـلُّ مُنْتَظِرًا ويُسْعِدُني **** أن نَلْتَقي والشَّوْقُ مُعْتَنَقُ

فعلى امْتِدادِ الشَّعْرِ فاتِنَتي **** تمتَدُّ أبعادي وتنْطَلِـقُ

وتمـــــوجُ قـــافِيَةً مُمَيَّزَةً **** ومواسِمًا خضراءَ تَأْتَنِقُ..!

ويبلغ التفاؤل عن الشاعر دروته في قوله:

هل تُشْرِقينَ..؟ أنا على ثِقَةٍ **** أنَّ الهوَى الوَرْدِيَّ مُؤْتَلِقُ

وبأنَّنا رغمَ الدُّجَـــى وَطَنٌ **** للياسَمينِ وموْعِـــدٌ عَبِـقُ

تحتَـــلُّنا حَيْفـــا وكَرْمِلـــها **** ومَعاصِرُ الزَّيْتونِ..والعَرَقُ..![29]

إن أكثر ما يتسلح به ابن الشاطئ في منفاه، هو الأمل والتحدي والصبر، حيث زهرة العودة دائما باقية في مروج إيمانه، فيستحضر هنا جماليات المكان وعبق التاريخ، لينسج خيوط الأمل ويمد من سقف أحلامه التي تمتد لتعانق سنا أشعاره، فالتعجب المقترن بصيغة الاستفهام هو تعبير عن ثقة في اللقاء، كما أنه تعبير عن أمل كبير في المستقبل، حيث (الانتظار والشوق والخضرة والهوى) عناوين هذا الاغتراب المؤقت، والمرتبط بسحر (حيفا وكرومها وزيتونها..) .

لاشك أن شاعرنا اختار متعالية شعورية يسموا إليها شعره، وهي كينونة الذات داخل الإرادة والحقيقة، وهو ما يمثل الحافز النوعي الذي يتخطى كل القيود ويستعصي بوجوده على كل أيادي العدوان والظلم، التي تمثل العدمية المنهزمة، فحين يعطل ابن الشاطىء منطق الزمن داخل الحقل الوجودي، فإنه يخلق قوة ذاتية رهيبة تتسيد عموم الآخر وتقاوم الشك والانهزامية، وتحقق مبدأ "التجاوز نحو العالم بغرض اختزال العالم في الذات"[30]. لذلك نجده يقول أيضا:

أن أبقى مبتسماً رغم الزيف
وبالرُغم من البهتان والكذب والحيف
فالآلام صارعتني طويلاً
أرفض عيشاً تنافى مع كياني
سأنتقم بذاتي من أعماق ذاتي
أحررها من أسوار حُبُكِ البائسْ
أعَتِقُها من سبايا النفس الهائمة
سأجعل من ذكرياتي سجنا منيعا
تلوذين حينها لضريحي بالبقاء[31].....

وهو هنا يتخذ من ماضيه منطلقا ومن جرحه شفاء ومن هزيمته انتصارا ومن غربته إلهاما، والحقيقة أن شخصية الشاعر من خلال شعره تعبر عن قوة عظيمة وعن وعي كبير بالحقيقة الماثلة أمامه، كما تعبر عن بطل في مواقفه ومبادئه ولغته، لقد استطاع أن يحمل سيف البطولة فكان فارس الشعراء ليلتحق بعنترة بن شداد وزهير بن أبي سلمى والأمير عبد القادر والبارودي وغيرهم ممن اختاروا المواجهة المزدوجة في التعبير عن أفكارهم وقضاياهم

5-3-الاغتراب بين عنفوان الحب وصورة الأنوثة:

لما كان الإبداع فسيفساء أسلوبية داخل النص الشعري، تجلت صورة الاغتراب في شعر ابن الشاطئ من خلال تموجات وبناءات فنية كثيرة ومختلفة، منها ما ارتبط بشخصية الشاعر، ومنها ما ارتبط بعمق قضيته وعدالتها، بل إن المتأمل للكتابة الشعرية عند هذا الشاعر يكتشف مداعبته لحسه الشعوري مقابل إغراءات رباعية الحب والتاريخ والأرض والعروبة، حيث جاء شعره الثائر متمسكا ومحشوا بهذه المرجعيات المقدسة في عمق الشخصية العربية والفلسطينية، ففي قصيدة "أبجدية المنفى والبندقية" الصادرة عن منشورات رابطة إبداع /الجزائر/ 2004م، عبر ابن الشاطئ على الأثر العميق الذي تركته في نفسه وشعوره أزمة الاغتراب وفراق

الأرض، التي ولد فيها ونشأ عليها، وكيف أنها حطمت بداخله كل معاني الأمل والحياة، لكنها لم تقتل روح التحدي والصمود، فنجده يقول:

وأقــرأُ في عينيك أســـرار غربـتي *** على شطِّها المهجور سَطْرُ حياتي
تشرَّدَتِ الأيـام في جفـن زورقـي *** وضاعتْ جيادي في نَوَى بسَماتي..!!
ترامَتْ على كَفِّ الزَّمــان يتيمـةً *** تُكَوِّنُ حرف النَّار في كلـماتي[32]

إن أكثر ما يثير المتلقي لحظة الوقوف على هذا الأبيات هو لفظة الشط (الشاطئ)، والتي هي امتداد للروح الرومانسية الحالمة التي دأب عليها أنصار الرابطة القلمية وجماعة العصبة الأندلسية في وقفاتهم، لمناجاة الطيف القادم من لبنان والمشرق العربي، فقد جاءت أبياتها محملة بمعان قوية الدلالة وشديدة الإيحاء، تحمل في ثناياها شوقا جارفا للماضي وشعورا عظيما بالانتماء، فالنار التي وظفها جاءت لتخرج شعرية صادحة وتفجر وهجا شعوريا وسط الكلمات، ولعل هذه النار هي التي اختارت لغة (الأسرار، والهجر، والتشرد، واليتم، و...)، فابن الشاطئ جمع بين مقام البوح ومقام الحزن ومقام التحدي والصمود ومقام الأمل، ليخلق لنا جوا نفسيا ثائرا ومناضلا وصامدا.

عشقتُك طفلاً لَمْلَمَ الصَّبْر مهدهُ *** ندِيَّ الرُّؤى والشـوقِ والقَسَماتِ
تغنّيك أوتـار الحيـــاة طفولـــتي *** وكمْ رقَصَتْ في زهـوِها خفقَاتي
على مقلتيها النور يسحب ذيلـهُ *** شموخاً.. ويذكو رائع الخُطواتِ [33]

إنه القادم من قرية الجسير " الواقعة بين الخليل وغزة " ، فقد اغترف من بحر غزة شعرا صافيا ممتعا ، ذاق مرارة اليتم باكرا ، حمل لـواء رعاية أسرته المكونة من ستة أفراد، رضع حليب التاريخ المعقود على نواصي الخيل العربية المسومة. لقد استطاع الشاعر تحويل الغربة إلى سلاح فتاك من شأنه تقوية العزيمة وبعث التمسك بالأرض، تماما مثلما استطاع تحميلها لأبنائه المغربين عن أرضهم، وهذا ما يؤكده ابنه الشاعر عدي قائلا :" إيه..!! صحيح أن من عاش غـريبا مات غريبا..!! رغم أن الوطن لا تحدده الجغرافيا.. الوطن شعور ورغبة وانتماء.. نحن من خلق الوطن.. خلقناه من حبنا.. من حلمنا.. من أفراحنا وأحزاننا.. من شوقنا إليه.. وتضحيتنا من أجله.. وخارطة الوطن تتسع كلما زدنا ارتباطا به.. وكلما اتسعت آمالنا.. وبعدنا عنه يحدده مدى استعدادنا للتضحية من أجله الوطن يعيش فينا وإن لم نعش فيه... لم أعش الغربة لأنني الوطن.. والوطن يبدأ من قلبي وينتهي إليه, مثلما يبدأ الحب من فلسطين، وينتهي بفلسطين "[34]

ويبلغ ابن الشاطئ ذروة الاغتراب النفسي والداخلي في قصيدة له حول الوفاء للوطن ومسألة خيانة الذات الفردية والجماعية، حينما جاء السجن بداية لإلهامه ومهدا خصبا لبداية ولادة روائعه وتفتق قريحته ليصبح صوتا خالدا مجلجلا وهو يقول :

يا أمَّ أَوْفَى كُنْتُ أُدْرِكُ ما وراءَكِ من سجـونِ..!

ومَنِ المتاجِرُ.. والعَميلُ.. ومَنْ يُريدُكِ أنْ تَكوني..!
لَكِنَّهُمْ سَدُّوا الطَّريقَ.. وزَوَّروكِ.. وزوَّروني..!؟
يَتَشَدَّقونَ بِحُبِّهِمْ ويُصادِرونَ ضُحَى الجُفـــونِ[35]

فالوطن مثل صورة الأم والإحساس الصادق، تماما مثلما مثل السجن ثمنا لهذا الشعور، فالخيانة التي يعيشها الشعب الفلسطيني في الداخل والخارج هي أكبر شيء يحطم النفس ويقتل الرغبة والإرادة، ولهذا نجد الشاعر يستحضر هذا في أغلب قصائده، حيت تكررت في مقاطع مختلفة منها ما هو تلميح ومنها ماهو تصريح، وهنا يمكن القول أنه استطاع نقل حالة نفسية وجماعية صادقة للشعب الفلسطيني.

والواقع أن بذور الثورة نبتت في وجدان ابن الشاطئ من كل هذه الخيانات كما نبتت من وراء قضبان المنافي ، وسراديب زنزانات الشتات، ففي قصيدة "إطلالة أوراسية" يمتزج الحب المكاني بالحب الصوفي، ويتعانق الماضي والحاضر مع المستقبل، وتستسلم الغربة لقوة الشخصية والإيمان بالوطن، فيفيض شعر ابن الشاطئ بالتحدي والصمود، وتكتب الشهادة للرجل الحي، فهي تسري في عروقه سريان الدماء المشتركة بأوردة التوائم والأشقاء صلة متجذرة منذ حقب وهو يقول :

أَتَطْلُبينَ ودادي = في لحظَةِ اسْتِشهادي..؟
وتسألين المرايا = عن كبرياءِ انْشِدادي
أنا الحبيبُ المُغَنَّى = ولا أخافُ الأعادي
أظلُّ كالأمسِ صَبًّا = أفيضُ عَبْرَ امْتِدادي[36]

كما تتفجر نفسية الشاعر المفعمة بالأنوثة والحب؛ لتعبر عن وحدة الجو النفسي وعن منبع الرغبة في البقاء، حيث عبق الماضي المجيد، الذي مثل هوية الشاعر ووسيلته في مواصلة الحياة، وحيت الوجود معطر بروح الشوق، لتخلق لنا تطابقا بين الزماني والمكاني اللذين من شأنهما تحقيق الكينونة والتفرد عن الآخر، وذلك باعتبار الفرد هو "العلة ومبدأ التعليل" فيقول:

كنت والله امرأة شكلتها *** صيحة العصر فوق جيد المغاني
لا تدانيك امرأة في الزوايا *** أو تساويك في اختراع الأغاني[37]

فهو يجعل من المرأة وطنا متفردا في وجوده وفي كيانه، ويربط هذا الشعور بالأرض التي شغلت ذاته وروحه، فالألحان والأغاني هي تلك الرومانسية الحالمة التي ملأت ماضيه من ذكريات الصبا وعنفوان الشباب.

إن حديت الشاعر عن ألم الفراق وعن مغادرة المحبوبة واستسلامها لخيبة الواقع وسيطرة الآخر، وعن جمالها وروحها وعشقها هو هروب واغتراب آخر يضاف إلى الاغتراب المادي، وهو وجه من أوجه الإبداع

والتخييل الفني المعبر عن وجدانه الحزين ومكتوي بنار الغدر والخيانة والاستيطان والتهجير، حيت تكالب الوجود من أجل وجوده التاريخي.

5-4- اللغة وتجاوز المعنى بالصورة عند ابن الشاطئ:

مثلت اللغة في مدونة ابن الشاطئ الشعرية بحرا مترامي الأطراف لا تحده حدود، يتجاوز فيها ملفوظه حد الدلالة إلى صناعة التأثير، وتموج الكلمات في جوارح الروح لتصنع صورا مفعمة بالحقيقة الحالمة، فالمتأمل للمعجم اللغوي للشاعر يجده مليئا بدفاتر التيه وماء الكتابة والتأليف، حيت: السفر والهامش والمنفى والصحراء والخيل والسكر والدم والثلج والاغتصاب، وهي كلها تتقاطع في عمق الإحساس ونبل التجربة، لتجسد تجربة متفردة في الاغتراب والحنين، فهو عندما يسافر في محطات الأنا لا يستهدف إلا اللقاء الأبدي، واسترجاع الماضي المجيد، وهي لغة قوية وجريئة مفعمة بالتحدي والثقة والصمود، كما أن دمع الحزن الذي يولد حبرا خلق توالد المعنى واستقطاب للقارئ ، الذي هو تجازوا لحد التجاوز ذاته، فالدمع تعبير عن الحزن ولكنه عندما يتحول إلى حبر يشرب يتجاوز عتبة السلبية إلى الصمود والثبات.وفي قوله :

وتشرب الدمع حِبْراً حين يقتلني **** (أيلول) في غابة المنفى بلا سبَبِ

وأما في قوله:

على زَبَدِ السَّفينِ يموتُ (سَعْدٌ) **** وتُؤْسَرُ (خَوْلَةٌ).. ويَعيشُ ذيبُ

حنانَكِ ما الـــــذي تَبْغينَ مِنِّي **** تَجَنَّى الأهْلُ.. واغْتَرَبَ الأديبُ[38]

فالملاحظ هنا أن الشاعر استطاع الخروج باللغة من نطاق المألوف والمعتاد، إلى عالم أكثر عمقا وتشعبا، فعمل على شحن الكلمات بروح جديدة، تماما مثلما استطاع أن يجعل لغتها "تنتقل بقارئها من مفعولية الوعي المستهلك إلى فاعلية الوعي المشارك في إنتاج الدلالة"[39]. وهو بذلك تجاوز المعقول إلى اللامعقول كما اخترق الواقع إلى ما وراء الواقع.

ويبلغ المعنى ذروته الشعرية المجاوزة لدلالة اللفظ عند ابن الشاطئ في توصيفته القوية لقيم الهوية والانتماء، حينما يطرح قضية العروبة ويتجاوز بها حد الرتابة والسطحية إلى حد الإبداع والفاعلية والتأثير فيعلن:

أنا والعروبة توأمان ولن يحرقنا الزمان.

فعلى ضفاف الوحدة الكبرى تلوح عسقلان.

فربط العروبة بالنفس يعني وحدة الشعور ووحدة الجو النفسي واستمرارية الوجود، كما أن توظيف الزمان واحتراق الوجود يمثل تحديا وتعجيزا للكيان الصهيوني، خاصة وأن هذا الأخير يلعب على تحريك عامل الزمان لتحقيق النسيان، ولعل هذا المعجم المختار من شاعر مقتدر فجر صدى قويا داخل النفس وانتج وحدة عربية تلوح تباشيرها على شواطئ عسقلان، كما استطاع –فنيا– أن يحقق مقولة جون كوهين "jean Cohen" "ليس الشعر هو التعبير الاعتيادي عن عالم غير اعتيادي، ولكنه التعبير غير الاعتيادي عن عالم اعتيادي"[40]

وفي موضع آخر يقول

ومن روائعه معلقة بابل/ على عتبات..سَيِّدَتي !..

أَتسْألينَ..؟ وهذا الحرفُ نَشْوانُ = وأنتِ في طَلْعَةِ الأيَّامِ عُنوانُ..؟

أَتَسْألينَ..؟ ونهر الشَّوقِ راحِلتي = وحُبُّكِ الصَّعْبُ موصولٌ وفتَّانُ..؟

أَتَسْألينَ دَمي..؟ ما زِلْتِ سَيِّدَتي= قِدِّسَتي.. ودَمي المحروقُ طوفانُ[41]

فاللغة الشعرية هنا جاءت مركبة ومنشطرة المعنى والدلالة، اختلط فيها المكان بالزمان والحسي بالمعنوي والمقدس بالمدنس، فكانت العيون شاخصة والقلوب مضطربة والدم محروق بلوعته، إنها الكتابة الشعرية المفعمة بالصور الحسية البليغة والمبنية على التشبيه والاستعارة والرمز والكناية، والتي توفقت في اختيارها مع الجو النفسي والشعوري للذات الشاعرة.

6-خاتمة:

خلاصة القول في مجرى هذه القراءة التحليلية اللغة الشعرية وأفق الاغتراب عند الشاعر الفلسطيني ابن الشاطئ، والتي تنوعت بين النصوص والمقاطع الإبداعية المفعمة بالحياة والصراع والمواجهة يمكننا القول :

-أن الاغتراب عنده وعند الشاعر الفلسطيني مثلت تحديا ومواجهة حقيقة لا تقل أهمية عن السلاح والصواريخ التي تطلق من قطاع غزة الصامد، فعنف الشوق وعنف الحياة هو من يحرك هذه القوة الداخلية عندهم ويجعلهم أكثر ايجابية وفاعلية في مواجهة الصهيونية العالمية واليهودي الغاصب بوجه خاص.

-تنوع الشعور بالاغتراب عند الشاعر بين اغتراب الجغرافي والنفسي، فجاءت نصوصه مليئة بالحزن والألم والشعور بالأسى على فقدان الوطن الغالي، وقد ربط هذا الشعور بكل ما هو موجود، أو لنقل بكل ما هو مادي أو معنوي، وهذا لإيصال صوته وصوت أمته، فالحزن عنده هو ذلك السواد الذي أصبح يلف الروح ويمنع عنها الفرح والسعادة والرغبة.

- تنوعت لغة الاغتراب عن ابن الشاطئ بين الرومانسية الحالمة والمفعمة بالطبيعة والجمال، وبين الأفضية المختلفة التي تملأ زوايا المكان وتجعلها مصدرا لصراع الذات ومواجهتها المختلفة والمتشعبة مع الوجود،

-تجاوز المعن السطحي أو الظاهر إلى المعاني العميقة نتيجة قوة اللغة وانزياحها المتوالي عن المألوف، والانتقال من التسطيح الدلالي إلى القوة الإحالية والدلالية المولدة للمعاني الانشطارية والمشاعر العميقة والهادفة.

- استحضار المكان بوصفه مكونا جماليا قوي الدلالة، والعمل على توظيفه بطريقة تثير العواطف وتحرك الأشجان، وتخلق صورا بصرية شديدة الإحالة والتضمين، والعودة إلى الماضي بكل تفاصيله، مع توظيف الأزمنة الماضية في بنائها الأسلوبي مما يعبر عمق الأزمة وشدة تأثر الشاعر بالوقع الفلسطيني، لذلك يتعين

البحت في الخصائص الفنية لهذا الشاعر المرهف والمبدع والبحث في حضور الجزائر في شعره وكتاباته الإبداعية، والتي كان يحتفي بها في كل المناسبات الشعرية والإعلامية، ونال جنسيتها بافتخار.

7- الهوامش:

---

[1]جمال الدين محمد ابن مكرم ابن منظور، لسان العرب، مج ،11، مادة (غ ر ب)، دار صادر للطباعة والنشر ، لبنان، ط ، 4 2005، ص 23-24.

[2]محمد راضي جعفر، الاغتراب في الشعر العراقي، ص .43.

[3]علي عبد الخالق علي، ظاهرة الاغتراب في منطقة الخليج، ص.106

[4]عز الدين إسماعيل : الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، ط03، د ت، ص 357 -356 .

[5]ينظر. عدي شتات: شعراء فلسطينيون في المنفى: دار ابن الشاطئ، جيجل الجزائر، ط01، 2019.ص5-6-7-8.

[6]سميح القاسم: الديوان، دار العودة، بيروت، لبنان، 1973،ص 253.

[7] اسماعيل ابراهيم شتات –ابن الشاطئ-: أبجدية المنفى والبندقية، ص300.

[8]س يدي لويس: الصورة الشعرية، تر: أحمد نصيف الجنادي، مالك ميري سليمان، حسن إبراهيم، دار الرشيد للنشر، 1982، ص20.

[9] فضيلة معيرش: الشاعر ابن الشاطئ عبقرية شعرية على امتداد سبعة عقود، الحوار المتمدن، ع 4738، ت:2015/03/04. https://www.ahewar.org/

[10] فضيلة معيرش: الشاعر ابن الشاطئ عبقرية شعرية على امتداد سبعة عقود، المرجع نفسه.

[11] فضيلة معيرش: الشاعر ابن الشاطئ عبقرية شعرية على امتداد سبعة عقود، المرجع نفسه.

[12] اسماعيل ابراهيم شتات –ابن الشاطئ-: أبجدية المنفى والبندقية، ص81.

[13] عبد الله راجع: القصيدة المغربية المعاصرة بنية الشهادة والاستشهاد، منشورات عيون، الدرار البيضاء، 1988، ص68.

[14] اسماعيل ابراهيم شتات –ابن الشاطئ-: أبجدية المنفى والبندقية، دار ابن الشاطئ الجزائر، ط01، 2004، ص74.

[15] فضيلة معيرش: الشاعر ابن الشاطئ عبقرية شعرية على امتداد سبعة عقود ، المرجع السابق.

[16] فضيلة معيرش: الشاعر ابن الشاطئ عبقرية شعرية على امتداد سبعة عقود ، المرجع السابق

[17] فضيلة معيرش: الشاعر ابن الشاطئ عبقرية شعرية على امتداد سبعة عقود ، المرجع السابق

[18]محمد ناصر الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص513.

[19]اسماعيل ابراهيم شتات –ابن الشاطئ-: أبجدية المنفى والبندقية، ص288-289.

[20]اسماعيل ابراهيم شتات –ابن الشاطئ-: أبجدية المنفى والبندقية، ص105.

[21] فضيلة معيرش: الشاعر ابن الشاطئ عبقرية شعرية على امتداد سبعة عقود ، المرجع السابق

[22] فضيلة معيرش: الشاعر ابن الشاطئ عبقرية شعرية على امتداد سبعة عقود ، المرجع السابق

[23]اسماعيل ابراهيم شتات ابن الشاطئ: النوارس تخترق جدار الصمت، الاتحاد العام للكتاب الفلسطينيين، الجزائر، ط01، 2016 ص130-131.

[24] اسماعيل ابراهيم شتات – ابن الشاطئ: ديوان النوارس تخترق جدار الصمت، ص33

[25]عبد الله حمادي: تحزب العشق ياليلى، دار البعث قسنطينة، 1982، ص217.

[26] فضيلة معيرش: الشاعر ابن الشاطئ عبقرية شعرية على امتداد سبعة عقود ، المرجع السابق

[27] محمد لطفي اليوسفي، في بنية الشعر المعاصر، سراس للنشر والتوزيع، تونس، دط، 1985، ص147.

[28] فضيلة معيرش: الشاعر ابن الشاطئ عبقرية شعرية على امتداد سبعة عقود ، المرجع السابق

[29] فضيلة معيرش: الشاعر ابن الشاطئ عبقرية شعرية على امتداد سبعة عقود ، المرجع السابق

[30] محمد مزيان: مسألة الذات في الفلسفة الحديثة، منشورات ضفاف، بيروت، ط01، 2015، ص234

[31] فضيلة معيرش: الشاعر ابن الشاطئ عبقرية شعرية على امتداد سبعة عقود ، المرجع السابق

[32] فضيلة معيرش: الشاعر ابن الشاطئ عبقرية شعرية على امتداد سبعة عقود ، المرجع السابق

[33] فضيلة معيرش: الشاعر ابن الشاطئ عبقرية شعرية على امتداد سبعة عقود ، المرجع السابق

[34] فضيلة معيرش: الشاعر ابن الشاطئ عبقرية شعرية على امتداد سبعة عقود ، المرجع السابق.

[35] فضيلة معيرش: الشاعر ابن الشاطئ عبقرية شعرية على امتداد سبعة عقود ، المرجع السابق

[36] فضيلة معيرش: الشاعر ابن الشاطئ عبقرية شعرية على امتداد سبعة عقود ، المرجع السابق

[37] اسماعيل ابراهيم شتات –ابن الشاطئ-: أبجدية المنفى والبندقية، ص201.

[38] فضيلة معيرش: الشاعر ابن الشاطئ عبقرية شعرية على امتداد سبعة عقود ، المرجع السابق

[39] جابر عصفور: معنى الحداثة في الشعر المعاصر، مجلة فصول، عدد4/ 1984، ص 43.

[40] محمد بنيس: ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، دار العودة، بيروت، 1979 ،ص162.

فضيلة معيرش: الشاعر ابن الشاطئ عبقرية شعرية على امتداد سبعة عقود ، المرجع السابق.

8-قائمة المراجع:

***المعاجم:**

1)جمال الدين محمد ابن مكرم ابن منظور، لسان العرب، مج ،11، مادة (غ ر ب)، دار صادر للطباعة والنشر ، لبنان، ط ، ،2005

***الدواوين:**

2)اسماعيل ابراهيم شتات –ابن الشاطئ-: أبجدية المنفى والبندقية، دار ابن الشاطئ الجزائر، ط01، 2004

3)اسماعيل ابراهيم شتات ابن الشاطئ: النوارس تخترق جدار الصمت، الاتحاد العام للكتاب الفلسطينيين، الجزائر، ط01، 2016

4)عبد الله حمادي: تحزب العشق ياليلى، دار البعث قسنطينة، 1982

5)سميح القاسم: الديوان، دار العودة، بيروت، لبنان، 1973

***الكتب:**

6)عبد الله راجع: القصيدة المغربية المعاصرة بنية الشهادة والاستشهاد، منشورات عيون، الدرار البيضاء، 1988

7)عدي شتات: شعراء فلسطينيون في المنفى: دار ابن الشاطئ، جيجل الجزائر، ط01، 2019

8) عز الدين إسماعيل : الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، ط03، د ت

9)محمد بنيس: ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، دار العودة، بيروت، 1979

10)محمد راضي جعفر، الاغتراب في الشعر العراقي **المعاصر، اتحاد الكتاب العرب، القاهرة، 1999**.

11)محمد مزيان: مسألة الذات في الفلسفة الحديثة، منشورات ضفاف، بيروت، ط01، 2015

12)محمد لطفي اليوسفي، في بنية الشعر المعاصر، سراس للنشر والتوزيع، تونس، دط، 1985

13)محمد ناصر الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985

***الكتب المترجمة:**

14)س يدي لويس: الصورة الشعرية، تر: أحمد نصيف الجنادي، مالك ميري سليمان، حسن إبراهيم، دار الرشيد للنشر، 1982

***المقالات:**

15)جابر عصفور: معنى الحداثة في الشعر المعاصر، مجلة فصول، عدد4/ 1984

16)علي عبد الخالق علي، ظاهرة الاغتراب في منطقة الخليج، مجلة مركز الوثثق والدراسات الإنسانية، قطر، ع 07، **1995**

***المواقع الالكترونية:**

17)فضيلة معيرش: الشاعر ابن الشاطئ عبقرية شعرية على امتداد سبعة عقود، الحوار المتمدن، ع 4738، ت:https://www.ahewar.org/ 2015/03/04